منهج رسائل النور في إثبات القضايا الإيمانية

محمد مصطفى محمد صالح[14]

المستخلص

يتعلق هذا المقال بمنهج رسائل النور في إثبات المسائل العقدية، ويسعى إلى الإبانة عن البراهين التي اعتمدها النورسي في مسعاه الدؤوب إلى تثبيت الإيمان في القلوب، ويتوسل هذا المقال على نحوٍ رئيسي لتحقيق غاياته بالمنهج التحليلي وفق منحى تحليلي لمضمون النصوص الواردة في مجموعة رسائل النور.

يشير المقال الصفات والسمات العقلية والتأملية، وإلمامه الوافي بالموروث الإسلامي بشقيه النقلي والاجتهادي العقلي، وكل ذلك منحه القدرة على تقديم الحجج البرهانية التي وقف الجميع أمامها مبهورين ومندهشين، ليخلص المقال إلى أن مصادر النورسي المعرفية، ومناهجه التي سار عليها لتأكيد الإيمان بالله تعالى وتوابعه من الأمور الغيبية تنقسم إلى قسمين رئيسيين: الأول هي المصادر الخاضعة للعقل والمنطق، وهي الطرائق الفلسفية والكلامية؛ والقسم الثاني فهو ما لا يخضع للعقل والمنطق، وهذه تتمثّل في الطرائق العرفانية الكشفية التي تُلحق بطرائق المتصوفة ومناهجهم. وفق هذا فإنه بالإمكان تسمية المصادر المعرفية من القسم الأول (مصادر معرفية من الدرجة الأولى)، إذ تحمل صاحبها على قبول الإيمان ابتداءً، لأنها تحمل الأدلة والبراهين المقنعة بالإيمان. أما القسم الثاني فهي (مصادر معرفية من الدرجة الثانية) فهي الغالب تتجلى لمن سبق إليه الإيمان فتتوارد عليه الرؤى والفيوضات الربانية والواردات الإلهية التي تثبت قلبه، وتهبه مزيد إيمان على إيمانه.

لقد نهج نهجاً جامعاً مستفيداً من مناهج كلٍ من المتصوفة والمتكلمين والفلاسفة؛ بيد أنه تعامل مع تلك المناهج المتعددة والمتباينة وفق منحى نقدي، تجلت فيه رسوخ الرؤية القرآنية وتأثيرها عليه بصورة واضحة وتمثلها في منهج الرسائل ومقصدها المتمثل في إثبات وترسيخ حقائق الإيمان، كما يؤكد المقال على المكانة التجديدية المرموقة التي اتصف بها الإمام بديع الزمان سعيد النورسي في ميدان الفكر الإسلامي عامة، وفي ميدان علم الكلام، وميدان التفسير المعنوي للقرآن الكريم بصورة خاصة.

الكلمات المفتاحية: القضايا الإيمانية، رسائل النور، مصادر المعرفة.

---

[14] أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية -كلية الآداب -جامعة الخرطوم

The Risalat Al-Nur Approach in Proving Faith Issues

Mohammed Mustafa Mohammed Salih

Abstract

This paper tackles the approach of Risale-i Nur in evidencing issues pertaining to religious doctrine. It attempts to demonstrate the reasoning adopted by Nursi in his persistent endeavour to establish faith in hearts. The paper adopts the analytical methodology to achieve its aim through contextual analysis of the content of Risale-i Nur.

The paper stresses the reasoning and contemplative attributes and characters of Nursi and his through knowledge of the Islamic heritage at both levels of revelation and reason. This gives him a unique ability to come up with stunning arguments. The paper finds that the sources of knowledge of Nursi and the approaches he adopts to affirm faith in Allah and what follows of unseen and unknown can be divided into two main parts: the first includes sources subject to reason and logic including philosophical and Islamic theology (ilm al-kalam) while the second includes what is not subjected to reason and logic including contemplative visionary which pertains to mystic approaches.

Therefore, we could name the first set of knowledge sources as primary sources as they lead to accept faith through convincing arguments and evidence while the second set could be known as secondary sources as they only emerge to persons of faith through divine inspiration which in turn foster faith.

Imam Nursi adopted a comprehensive approach benefiting from methods of mystics, theologians and philosophers. However, he deals with these diverse methods in a critical manner that reflects the effect of Holy Quran in the methodology and aim of Risale-i Nur of fostering the truths of faith.

The paper also reflects the position of Imam Bediuzzaman Said Nursi as a leading reformist in the field of Islamic Thought and in particular in the domains of theology and linguistic interpretation of the holy Quran.

Keywords: Faith Issues, Risale-i Nur, Sources of Knowledge.

مقدمة:

إنه لمن الواجب على الباحث في رسائل النور أن يبدأ بالوقوف على شخصية صاحبها ومصنّفها الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وذلك أن شخصية المؤلف تظهر بكل وضوح من خلال السطور التي يكتبها؛ فمن خلالها تظهر روحه وأفكاره ومعتقداته، كما أن ظروف العصر والبيئة التي ظللت حياة المؤلف تترك أثرها الواضح والملموس على طريقة التفكير والتأليف

إن مجموعة رسائل النور تعتبر مرآة صادقة تعكس بكل وضوح وشفافية أحوال المسلمين وأوضاعهم في الفترة الحرجة التي عاشها الأستاذ بديع الزمان كما عاشتها الأمة المسلمة في مختلف بقاع الأرض.

لقد جاءت رسائل النور في مناهجها وتنظيمها وترتيبها معبّرة بكل صدق عن واقع المسلمين، وعن شخصية النورسي الذي كان راصدًا ومراقبًا، وكان مهمومًا كذلك بالحالة التي عانتها الأمة المسلمة في تلك الفترة الحرجة من تاريخها. (النورسي،10:2012)

ولقد كانت الهجمة الإلحادية التي جاءت من الغرب الأوربي قد تركت بصماتها السلبية على أفكار جموع المسلمين خاصة في البلدان التي تعرضت بشدة لهذه المؤثرات مثل الدولة العثمانية، ومصر، وتونس، وشبه القارة الهندية، ومن هنا شعر النورسي أن المسلمين بحاجة ماسة إلى من يغرس في قلوبهم الإيمان التحقيقي القائم على العلم والمعرفة بدلًا من ذلك الإيمان الموروث التقليدي الذي لا يمكن له أن يصمد أمام عواصف الإلحاد وتياره الجارف. لقد أصبح الكثيرون من المسلمين غير مكترثين بقضايا الإيمان وبأمور الغيبيات.

فكان لابد من دعم قضايا الإيمان بطريقة مقبولة وميسورة، وبمنهجية علمية تجمع بين معطيات الوحي وبين مقتضيات العقل. والمقال الذي بين أيدينا يحاول الوقوف على منهج رسائل النور في إثبات القضايا الإيمانية.

يسأل هذا البحث عن المنهج الذي اتّبعه النورسي في إثبات القضايا الإيمانية، ويحاول تتبع مدى انسجام هذا المنهج مع المنهج القرآني النبوي في إثبات هذه القضايا. ويطرح المقال سؤالًا جوهريًا وهو ما مدى التجديد الذي أحدثه الإمام النورسي في هذا الميدان؟ وما أثر ظروف العصر والبيئة على منهج رسائل النور؟

وتعتمد الدراسة على منهج تحليل النصوص الواردة في مجموعة الرسائل ومحاولة ممارسة الطريقة التفكيكية والتركيبية في آن معًا بغرض تجلية الحقيقة وتبيين المنهج الذي سار عليه النورسي في إثبات القضايا الإيمانية من خلال مجموعة الرسائل.

قضية الإيمان قضية جوهرية:

تتفق الآراء أن الإنسان حيوان ناطق، والنطق هنا يعني التفكير والقدرة العقلية التي ركّبها فيه الله سبحانه وتعالى، وهو حيوان متدين؛ فالبشر منذ فجر تاريخهم، وخلال تجمعاتهم الحضرية التي شهدت قيام العديد من الحضارات عرفوا الدين والتدين بأشكال مختلفة، وعبدوا أشكالًا مختلفة من الآلهة. ولقد حدث ذلك بعد ظهور الانحراف عن العقيدة التوحيدية الأولى التي نزلت إلى آدم عليه السلام أبي البشر الأول، وهو الذي تلقّى من ربه كلماتٍ فتاب عليه من المعصية الأولى، وتوالت الرسل والأنبياء تأتي بالرسالات والنبوات التي تعصم الإنسان من الضلال والانحراف عن سواء السبيل، وتسدد خطاه على صراط الله المستقيم.

وكانت كل الرسالات والنبوات بلا استثناء تؤكد على حقيقة الإيمان بالله وبقضايا الغيب الأخرى، هذا بالطبع إلى جانب إصلاح كل مظاهر الانحرافات التي تظهر بين الأمم المختلفة؛ حدث ذلك على سبيل المثال

مع قوم شعيب حيث دعاهم نبيّهم لتوحيد الله ثم نهاهم عن تطفيف المكاييل والموازين. وقوم لوط عليه السلام حيث دعاه إلى التوحيد ونبذ الانحرافات السلوكية المنافية للفطرة السليمة. وموسى وهارون عليهما السلام حيث أرسلهما الله تعالى لإخراج بني إسرائيل من بطش فرعون، ولتذكير فرعون بالله تعالى، وحدث الأمر ذاته بالنسبة لعيسى بن مريم عليه السلام الذي جاء إلى بني إسرائيل لتذكيرهم بالله تعالى.

ثم جاءت الرسالة الخاتمة والنبوة النهائية التي حمل رايتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت دعوته مواصلةً وتتويجًا لكل الرسالات والنبوات السابقة، ومثَّلت قضية الإيمان القضية الأساسية والجوهرية التي نادى بها الرسول الكريم عليه أفضل الصلوت وأزكى التسليمات.

لقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة لمدة ثلاث عشرة سنة يدعو أهل مكة ومشركي قريش والعرب لتوحيد الله تعالى، ولاقى ما لاقى في سبيل هذه الدعوة ولكنه لم يتراجع عنها قيد أنملة، ولم يساوم فيها، ولم يقبل من القرشيين والعرب أنصاف الحلول عندما حاولوا معه ذلك، واستطاع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في خاتمة المطاف بصبره ومصابرته ومرابطته وجهده وجهاده أن يبني النواة الأولى لمجتمع المسلمين ولدولتهم التي نشأت بعد الهجرة في يثرب (المدينة النبوية).

كان الإيمان الذي رسخ في قلوب الصحابة الأوائل هو الزاد والمحرّك والوقود الذي دفعهم للحركة الدائبة النشطة التي أقاموا من خلالها مبادئ الدين في قلوبهم ونفوسهم أولًا ثم في واقع الحياة الاجتماعية ثانياً، لقد عرفنا كيف استطاع الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره أن يغيّر حياة أولئك الصحابة الأوائل تغييرًا جذريًا، وأبرز مثال على ذلك سيدنا عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه الذي كان شديدًا وقاسيًا وفظًّا ومحاربًا للمسلمين، ولكنه عندما دخل الإيمان إلى قلبه تغيّر بصورة جذرية حتى أصبح مثالًا للعدالة والرحمة والشفقة.

المنهج النبوي في إثبات الإيمان:

كان هناك عاملان حاسمان بالنسبة للعرب جعلتهم يقبلون الدين الجديد. إن العامل الأول هو النموذج والمثال النبوي؛ فمحمد عليه الصلاة والسلام كان يمثل الشخصية المثالية، فالله تعالى تولاه منذ لحظة الميلاد بل قبلها وهو في الأرحام والأصلاب بالرعاية والعناية والتهيئة، وظل معروفًا بين أهل مكة بأنه الصادق الأمين الذي ما جرّب عليه قومه كذبًا. نستطيع القول إن الشخصية المحمدية منذ ميلادها وحتى بلوغها سن الرسالة كانت هي الضمانة الأولى التي جعلت أولئك العرب يقبلون رسالته.

أما العامل الحاسم الثاني فكان هو القرآن الكريم الذي كان يتنزّل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن القرآن هو الكلام الإلهي الرباني المعجز الذي نزل به جبريل عليه السلام على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد أحدث القرآن تأثيرًا كبيرًا على العرب الذين عرفوا فصاحته وبيانه وجمال أسلوبه حتى أنهم وصفوه بالسحر، كان القرآن الكريم يقرع أسماعهم بقوة، وكان يدخل إلى قلوبهم القاسية فيحدث فيها صدوعًا ويهزّها هزًّا بل ويزلزلها زلزالًا شديدًا، ويحملها حملًا على الخضوع والإذعان لله تعالى.

وكان القرآن الكريم حين يخاطب العرب ويدعوهم للإيمان كان يلفت أنظارهم ويوجهها إلى الكون (كتاب الله المنظور)، والآيات القرآنية المكية كانت تتسم بسمات القصر والقوة والجزالة والجمال، وترسم لوحاتٍ شديدة الأسر والجذب للكون، ولعلم ماوراء الطبيعة من جنة ونار وقبر وثواب وعقاب. والعرب كانوا يعيشون في صحراء شاسعة واسعة ممتدة مترامية الأطراف تمكّنهم من النظر في ملكوت السماء وما فيها من نجوم وكواكب

وشمس وقمر، وينظرون في الصحراء الممتدة وما فيها من جبال وأودية ووهاد وسهول وحزون فيشعرون عندها بعظمة الصنعة الإلهية.

إن القرآن الكريم قد استخدم كل الأدلة المقبولة عقليًا والتي تنهض برهانًا جازمًا على الإيمان بالله تعالى؛ فلقد استخدم القرآن الدليل الكوني (الكوزمولوجي)، ودليل الغاية والنظام والتدبير، والدليل الأنطولوجي، ودليل الفطرة، والأدلة الاستنباطية. (بشير،95:2015)

وإذا كان المنهج النبوي في الدعوة الإيمانية قد اعتمد على شخصية النبي الخاتم وعلى القرآن وعلى الكون فلقد كان هناك أمر آخر يدعم تلك العوامل وهو عامل الفطرة السليمة الموجودة والمغروسة في ضمير كل فرد من بني البشر.

إن الفطرة السليمة شاهدة ودالة على الإيمان؛ فالناس حينما تشتد بهم الخطوب وتضيق بهم الأحوال يهرعون إلى ربهم وإلههم الحق، ويتركون الأصنام والأوثان والأنداد. إن عامل الفطرة عامل حاسم في قضية الإيمان ولقد أكّد القرآن الكريم ذلك كما أكّدته الأحاديث النبوية الشريفة.

ولقد استفاد المفكرون المسلمون وعلماء الكلام والفلاسفة من القرآن الكريم وساروا على طريقته، ولكنهم بدون ريب قد تأثروا بالفلسفات التي وردت عليهم خلال عصر الترجمة، ولقد حاول البعض أن يمزج بين الفلسفة المترجمة وبين حقائق القرآن والشرع، وفي هذا الميدان هناك من حالفه التوفيق، ومنهم من جانبه الصواب. ويبدو أن معالجة قضايا الإيمان عند المتكلمين وعند الفلاسفة على السواء كان يغلب عليها طابع العسر والجفاف على غير طريقة القرآن التي تعتمد على اليسر والسهولة، وتخاطب العوام والخواص في وقت واحد، بل وتخاطب الكبار والصغار فيجد فيها كل صنف من الناس بغيته ومطلبه.

وبالطبع فإن الأمراض والمشاكل التي واجهت فلاسفة الأمس وعلماء الكلام السابقين تختلف عن مشاكل العصور اللاحقة وعن أمراضها وعللها، ومن هنا كان على أهل العصور اللاحقة من العلماء والمفكرين أن ينهضوا لمواجهة مشاكل عصورهم وعللها بطريقة مقبولة وميسورة لعامة المسلمين حتى يكون بإمكانهم ترسيخ الإيمان في نفوسهم وقلوبهم والدعوة إليه بكل ثقة واطمئنان.

منهج رسائل النور في تأكيد الإيمان:

لابد من إثبات هذا النص المقتبس والقائل: (إن أساس رسائل النور وخميرتها وقاعدتها وروحها وحقيقتها هي تصديق الحقائق الإيمانية -من حيث الإيمان بالغيب، وبفيض سر الوحي، وبأسلوب برهاني وقرآني، بامتزاج العقل والقلب – بعلم اليقين الذي يصل إلى درجة الضرورة والبداهة في قوة حق اليقين). (النورسي،16:2013)

إن التصريح باتّباع الأسلوب البرهاني القرآني أمر في غاية الأهمية حيث إنه يؤكد حقيقة المنهج الذي سارت عليه رسائل النور، وهو منهج قرآني نبوي برهاني يخاطب العقول لكنه يمتزج مع القلب والعاطفة والشعور، وهو هنا يتباعد عن جفاف طريقة تقديم البراهين الفلسفية والكلامية، وينهل من معين الأدلة القرآنية المفعمة بالعاطفة والوجدانيات.

ثم لابد من عرض النص المقتبس التالي: (إن رسائل النور درس قوي في علم الكلام، وتفسير معنوي يوصل جواهر القرآن المحيطة الغنية إلى البشرية بجناحي العقل والقلب، وهي تملك قوة علمية وفكرية تستطيع ان تلبي كل الحاجات المعنوية للزمن الحاضر والمستقبل، فضلًا عن أنها تحتوي على كل ثروات عالم الفكر التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، ومن هذا المنطلق ففي هذه الرسائل قدرة على إزالة كل الاعتراضات والشبه التي تثار حول الحقائق الإيمانية، وعلى إلزام المعترضين). (النورسي،16:2013)

ويمكن القول بإجمال إن المنهج الذي سارت عليه رسائل النور في إثبات القضايا والحقائق الإيمانية لا يكاد يخرج عن المنهج الذي بيّنه القرآن الكريم وسار عليه، والمنهج النبوي، فالأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي حدد مجموعة بنود جعلها أدلته وبراهينه القوية الدالة والمؤكة لحقائق الإيمان، وهي دليل الكون (الدليل الكزمولوجي) ولقد أطلق عليه النورسي اسم (الكتاب المنظور)، ودليل القرآن الكريم الذي أسماه النورسي (الكتاب المسطور أو المقروء)، ودليل النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي أطلق عليه النورسي اسم (القرآن الناطق أو القرآن الثالث)، والدليل الرابع هو دليل الفطرة، ويجب القول إن النورسي لا يعتبر هذه كلَّ الأدلة بل هي جزء من الأدلة الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى. (النورسي،411:2011)

ويمكن لقائل أن يقول ما الجديد في هذه الأدلة؟! والإجابة تكمن في طريقة العرض السلسة، وفي الأسلوب السهل الميسور الذي خرج على نمطية المتكلمين القدماء، وعلى طرائق الفلاسفة الذين قيّدوا أنفسهم بالبراهين المنطقية الأرسطية، فلقد سار النورسي على طريق القياس التمثيلي، ولقد أكثر من استخدام هذا القياس، ولقد سألوه عن سر اتّباعه لهذا الأسلوب برغم عدم يقينية مخرجاته؛ فهو لا يفيد اليقين حسب علم المنطق، ولقد أجاب النورسي عن هذا التساؤل بقوله: (لقد ورد في علم المنطق أن القياس التمثيلي لا يفيد اليقين القطعي، إلا أن للقياس التمثيلي نوعًا هو أقوى من البرهان اليقيني للمنطق، وهو أكثر يقينًا من الضرب الأول للشكل الأول للمنطق). (النورسي،407:2011)

ويستطرد النورسي في الكلمات قائلًا: (وذلك القسم يظهر جزءًا وطرفًا من حقيقة كلية بواسطة تمثيل جزئي، ويبني الحكم على تلك الحقيقة، ويبين قانون تلك الحقيقة في مادة خاصة حتى تعرف تلك الحقيقة العظمى، وترجع إليها المواد الجزئية). (النورسي،409:2011)

ويضرب النورسي مثالين على ذلك هما مثال الشمس ومثال الشجرة؛ فالقانون الذي يحكم اللمعان الذي يتركه ضوء الشمس على السطوح قانونه واحد، والقوانين التي تحكم نمو الأشجار بثمارها وأزهارها وأوراقها واحدة؛ ومن هنا جاز القياس والتمثيل طالما أن القوانين والنواميس الكونية واحدة ومنتظمة ومتّسقة؛ فهذا الكون العظيم الهائل مظهر وميدان تجوال لقانون الحقيقة هذا، وسر الأحدية ذاك، كهذه الشجرة. (النورسي،409:2011)

ويمضي النورسي مدافعًا بكل قوة عن طريقته في الرسائل وعن استخدامه للقياس التمثيلي بصورة خاصة فيقول: (فالقياسات التمثيلية في الكلمات – أي في رسائل النور – كلها من هذا النوع؛ بحيث إنها أقوى من البرهان القاطع للمنطق وأكثر يقينًا منه). (النورسي،409:2011)

يركّز الإمام النورسي على لفت أنظار الناس إلى الكون هذا الكتاب المنظور في مواضع عديدة من الرسائل، ففي عصا موسى يقول بديع الزمان : (... فإن التجلي الأعظم لاسم الحكم جعل هذا الكون كتابًا، بحيث قد كتبت في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأدرجت في كل سطر من سطوره مئات الصفحات، وفي كل كلمة من كلماته مئات السطور، وفي كل حرف من حروفه مئات الكلمات، وفي كل نقطة من نقاطه فهرس صغير للكتاب، فهذا الكتاب يدل بكل صفحاته وسطوره بل حتى بنقاطه بمئات الوجوه على نقّاشه وكاتبه دلالة واضحة؛ بحيث إن مشاهدة كتاب الكون هذا تثبت وجود كاتبه ووحدته أكثر مما يثبت هو وجود نفسه بمائة درجة؛ لأنه إذا كان الحرف الواحد يعبر عن نفسه بقدر حرف واحد، فهو يعبر عن كاتبه بقدر سطر). (النورسي،171:2009)

ويربط النورسي في مناجاته العميقة بين المظاهر الكونية والطبيعية وبين خالقها؛ حيث يقول: (يا قدير ذا الجلال، إن الهواء والسحاب والمطر والبرق والرعد في جو الفضاء مسخرون وموظفون في ملكك بأمرك

وحولك وقوتك وقدرتك، وإن مخلوقات هذا الفضاء – التي كل واحد منها بعيد عن الآخر من حيث الماهيّة – تقدس آمرها وحاكمها الذي يجعلها تطيع الأوامر السريعة الفورية للغاية، والتحكمات السريعة العاجلة، وتمدح رحمته وتثني عليها). (النورسي،192:2009)

أما الدليل الثاني من أدلة رسائل النور فهو القرآن الكريم المعجز؛ ففي ديباجة رسالة المعجزات القرآنية وهي الكلمة الخامسة والعشرون التي مثّلت المقام الأول من (ذو الفقار) يقول النورسي: (يبدو لعقلي أنه من الفضول التحري عن برهان، وفي اليد معجزة باقية كالقرآن، أيتضايق فؤادي من إلزام المنكرين وفي اليد برهان الحقيقة كالقرآن). (النورسي،9:2011)

ويقف النورسي عند تعريف القرآن بطريقة تنمّ عن معرفة عميقة، وعن فكرة دقيقة حيث يقول: (... هو الترجمة الأزلية لهذا الكتاب الكبير للكون، والترجمان الأبدي لألسنتها المتنوعة التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة، وكشّاف للكنوز المعنوية للأسماء الألهية المستترة المخفية في الأرض والسماوات، ومفتاح للحقائق المخفية بين سطور الحادثات، ولسان عالم الغيب في عالم الشهادة، وكنز للالتفاتات الأبدية الرحمانية والخطابات الأزلية السبحانية الموجودة وراء حجاب عالم الشهادة هذا، والآتية من جهة عالم الغيب، وشمس هذا العالم المعنوي للإسلام وأساسه وهندسته، وخريطة مقدسة للعوالم الأخروية، والقول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه، ومربٍ لهذ العالم الإنساني، ومرشد للبشر وهاديهم الحقيقي الذي يسوقهم إلى السعادة، ثم إنه للإنسان كتاب شريعة، وكتاب دعاء، وكتاب حكمة، وكتاب عبودية، وكتاب أمر ودعوة، وكتاب ذكر، وكتاب فكر، وهو كتاب وحيد مقدس جامع يتضمن كتبًا كثيرة تكون مرجعًا لجميع حاجات جميع البشر المعنوية). (النورسي،9:2011)

ويواصل النورسي تقديم تعريف عرفاني جامع للقرآن الكريم حيث يقول عن هذا الكتاب: (كلام الله بصفته رب جميع العالمين؛ لأنه أتى من العرش الأعظم ومن الاسم الأعظم ومن أعظم مرتبة لكل اسم من الأسماء الحسنى، وهو فرمان الله بوصفه إله الموجودات قاطبة، وخطاب باسم خالق جميع السماوات والأرض، ومكالمة بصفة الربوبية المطلقة، وخطبة أزلية باسم السلطنة السبحانية العامة، وهو سجل التكريم الرحماني من حيث الرحمة الواسعة المحيطة، وهو مجموعة مخابرات تحمل أحيانًا في بدايتها شفرات بحيثية عظمة جلال الألوهيّة، وهو كتاب مقدس يتفجر بالحكم، ينظر – من حيث نزوله من محيط الاسم الأعظم – في جميع ما أحاط به العرش الأعظم ويفتشه). (النورسي،10:2011)

يتناول الأستاذ النورسي القرآن من جهاته الست فيراها جميعًا مشرقة ونقية من أوهام الشبهات؛ فنقطة استناده: الوحي السماوي والكلام الأزلي باليقين، وهدفه وغايته: السعادة الأبدية بالمشاهدة، وداخله: هداية خالصة بالبداهة، وأعلاه: أنوار الإيمان بالضرورة، وأسفله: الدليل والبرهان بعلم اليقين، ويمينه: تسليم القلب والوجدان بالتجربة، ويساره: تسخير العقل والإذعان بعين اليقين، وثمرته: رحمة الرحمن ودار الجنان بحق اليقين، ومقامه ورواجه: قبول الملك والإنس والجان بالحدس الصادق. (النورسي،10:2011)

وفي مكان آخر من الكلمات يقف النورسي مع البرهانين العظيمين للتوحيد وهما الكون والقرآن، وعن القرآن يقول إنه (فرقان جليل الشأن)، وبرهان ناطق لذلك التوحيد، كل آياته صادقة اللسان، وشعاعاتها بارقة الإيمان، كلها تقول معًا: (لا إله إلا هو). (النورسي،465:2013)

ويلاحظ بديع الزمان سعيد النورسي بعض المزايا القرآنية التي يقسّمها بطريقته الفذّة إلى مجموعة من الشعاعات متضمَّنةً في الشعلة الأولى من (ذو الفقار)، وسوف نستعرض هذه المزايا والخصائص القرآنية بصورة مجملة فهي تتمثل في: بلاغة القرآن التي بلغت حد الإعجاز، وهذه تحتوي على البلاغة الرائعة في

المعنى، والجزالة الرائعة في النظم، والبداعة الخارقة في الأسلوب، والفصاحة الخارقة في اللفظ، والبراعة في البيان. (النورسي،11:2009)

يقول النورسي في (ذو الفقار): (وإن بيان القرآن في مقام الإرشاد لمؤثر ورقيق، ومؤنس وشفيق بحيث إنه يملأ الروح شوقًا، والقلب ذوقًا، والعقل شغفًا، والعين دمعًا). (النورسي،30:2009)

ويلفت النورسي الأنظار إلى ما أسماه بـ (جامعية القرآن)؛ ووصفها بأنها جامعية لا مثيل لها؛ فهناك الجامعية الخارقة في اللفظ القرآني، والجامعية الخارقة في معانيه، والجامعية الخارقة في علمه، والجامعية الخارقة في مباحثه، والجامعية الخارقة في أسلوبه وإيجازه وقد بلغ في ذلك حد الإعجاز كما أقرت العرب بذلك، وجامعية القرآن الخارقة من ناحية المقاصد والمسائل والمعاني والأساليب واللطائف والمحاسن. (النورسي،38:2009)

والإمام النورسي له قدرة فائقة على الربط بين القرآن والكون، أو بين الكتابين المسطور والمنظور؛ فها هو يقول: (إن القرآن الحكيم ببياناته المعجزة يبسط وينشر أمام الأنظار أفعال الصانع ذي الجلال وآثاره، ثم يستخرج الأسماء الإلهية من تلك الآثار والأفعال، أو يثبت مقصدًا أصليًا من المقاصد القرآنية كالحشر والتوحيد). (النورسي،71:2009)

ويقف الإمام بديع الزمان سعيد النورسي عند شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث يعتبره القرآن الثالث أو القرآن الناطق، وبالفعل فإن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان يمثل النمذج الفعلي والترجمة العملية للقرآن المتلو، وعندما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقه فأجابت قائلةً: (كان خلقه القرآن). (الشيباني،2001)

وكعادة الإمام بديع الزمان فإنه يحاول أن يضع تعريفًا مصوّرًا مشكّلًا يقدم فيه الخلاصة المعنوية لشخصية خاتم النبيين وإمام المرسلين عليه الصلاة والسلام؛ يقول الإمام: (هو الذي لعظمته المعنوية صار سطح الأرض مسجده، ومكة محرابه، والمدينة منبره، وهو إمام جميع المؤمنين يأتمّون به مصطفّين خلفه، وخطيب جميع البشر يبيّن لهم دساتير سعاداتهم، ورئيس جميع الأنبياء، يزكّيهم ويصدّقهم بجامعيّة دينه لأساسات أديانهم، وسيّد جميع الأولياء، يرشدهم ويربّيهم بشمس رسالته، وقطب في مركز دائرة حلقة ذكر تركّبت من الأنبياء والأخيار والصدّيقين والأبرار المتفقين على كلمته الناطقين بها، وشجرة نورانية عروقها الحيوية المتينة هي الأنبياء بأساساتهم السماوية، وأغصانها الخضرة الطريّة وثمراتها اللطيفة النيّرة هي الأولياء بمعارفهم الإلهاميّة، فما من دعوى يدّعيها إلاّ ويشهد لها جميع الأنبياء مستندين بمعجزاتهم، وجميع الأولياء مستندين بكراماتهم، فكأنّ على كل دعوى من دعاويه خواتم جميع الكاملين؛ إذ بينما تراه قال: لا إله إلا الله وادّعى التوحيد فإذا بنا نسمع الماضي والمستقبل من الصفّيين النورانيين – أي شموس البشر ونجومه القاعدين في دائرة الذكر – عين تلك الكلمة، فيكررونها، ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم، فكأنهم يقولون بالإجماع: صدقت وبالحق نطقت).(النورسي،2009-26)

والإمام النورسي بقوته الروحية كأنه يرى الترابط العجيب بين الأنوار الكونية والأنوار القرآنية والأنوار النبوية المحمدية التي تترك آثارها على الحياة الكونية من جهة وعلى الحياة الإنسانية من جهة أخرى؛ فها هو النورسي يقول: (انظر إلى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياءً نوّارًا، ومن الحق نورًا مضيئًا؟! حتى صيّر ليل البشر نهارًا، وشتاءه ربيعًا، فكأنّ الكائنات تبدّل شكلُها فصار العالم ضاحكًا مسرورًا بعدما كان عبوساً قمطريرًا؛ إذا لم نستضئ بنوره نرى في الكائنات مأتمًا عموميًا، ونرى موجوداتها كالأجانب والأعداء، لا يعرف بعضها بعضاً بل يعاديه؛ ونرى جامداتها جنائز دهاشة، ونرى حيواناتها وأناسيّها أيتامًا باكين بضربات

الزوال والفراق، ونرى الكائنات بحركاتها وتنوّعاتها وتغيّراتها ونقوشها ملعبة التصادف منجرّة إلى العبثية مهملة لا معنى لها). (النورسي،2009-29)

ثم يقف النورسي عند البرهان الرابع وهو برهان الفطرة؛ فشهادة الفطرة صادقة؛ فهي لا تكذب البتة، وهذه الفطرة الكونية والنفسية التي جعلها الله تعالى شاهدة ودالة وبرهانية يجدها المرء في نفسه التي بين جنبيه، ويجدها في قلبه وروحه وشعوره، وتحمله حملًا، وتدفعه دفعًا ليؤمن بربه سبحانه وتعالى. إن النورسي وهو يتحدث عن الفطرة التي لا تكذب كأنه يتحدث بل هو حقًا يتحدث عن السنن الكونية وعن النواميس الربانية التي لا تتخلف؛ ويقدم مثال النواة التي تظهر الميل نحو النمو والإثمار، وكأنها تقول بلسان حالها: سوف أنمو وسوف أثمر، ويعرض مثال البيضة التي تحتوي على فرخ الطائر وهو يميل إلى الخروج إلى الحياة والوجود، وهذا الميل هو الفطرة أو هو السنن الكونية والقوانين التي يسير عليها الكون. (النورسي،2008-471)

لقد استعرضت الورقة البراهين الأربعة الكبرى التي استخدمها الإمام النورسي في إثبات قضايا الإيمان، ولقد ظهر بوضوح من خلال هذا الاستعراض مدى العمق، ومدى الفهم، كما ظهرت من خلال النصوص المقتبسة من الرسائل مدى القدرة التأمليّة التي يتمتع بها الإمام النورسي. ولكن قد يثور تساؤل مشروع عند من يرصد حركة النورسي الفكرية وهو إلى أي المدارس المعرفية يمكن أن يلتحق بديع الزمان سعيد النورسي؟! ويبدو أن الجواب عن مثل هذا التساؤل ليس بالأمر اليسير وذلك لأن العقلية المتسعة الرحيبة، والذهنية النشطة الوقّادة التي تميّز بها الإمام إلى جانب الذكاء منقطع النظير التي تميّز به، وشهد له به معاصروه من العلماء وخاصة الذين تتلمذ على أيديهم في بواكير عمره.

نقول إن كل تلك المميزات قد مكّنت بديع الزمان سعيد النورسي من الانفتاح على كل الموروث الفكري الإسلامي بجانبيه الروائي النقلي والاجتهادي العقلي. فالإمام النورسي من خلال كليات رسائل النور يستخدم مخزونه المعرفي الواسع بالتراث الإسلامي في الخروج بمنهجية منضبطة، وبنظريةٍ معرفيةٍ مستقاة من أصول الوحي القرآني، ومن السنّة النبوية المشرّفة على طريقة السلف الصالح من جمهرة أهل السنّة والجماعة.

كما أننا نلمس عنده تلك المقدرة الفائقة، وذلك الاطّلاع الواسع على العلوم العقلية، وهو الأمر الذي مكّنه من القدرة على توليد الأفكار العقلية، وعلى تقديم الحجج البرهانية التي يقف أمامها الجميع مبهورين ومندهشين. إن استخدام العقل عند النورسي لهو واضح وضوح الشمس في رائعة الضحى!! كيف لا وهو الذي وصف مجموعة الرسائل بأنها علم كلام جديد، وعلم الكلام – كما هو معروف – قائم على الحجاج العقلي حيث إن أئمة هذا العلم ورجاله قد ظهروا في حقبة تكاثرت فيها الهجمات والمطاعن تجاه العقيدة الإسلاميّة؛ فقام عند ذلك أولئك النفر من مؤسسي علم الكلام بمحاجّة أهل الملل والنحل بغرض الذبّ عن العقيدة الإسلامية.

والنورسي له القدرة على أخذ الحق حتى وإن ظهر على يد المخالفين، وكأنّ لسان حاله يقول: خذ الحكمة من أيِّ وعاء خرجت، وكأنه يتمثّل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها). (ابن ماجة، رقم 4149)

ومن هنا فقد سار النورسي على ذات السبيل، ونسج على ذات المنوال لكنه كان بحاجة لتجديد قواعد الحجج والبراهين بسبب تغيّر الظروف والأحوال، وتغيّر الأمراض والعلل التي طرأت على حياة الأمة المسلمة، ولقد كان بديع الزمان قد وجد نفسه محاطًا بمثل هذه الظروف الأمر الذي حتّم عليه أن ينهض بالمهمة التجديدية في ميدان علم الكلام. ثم وجد نفسه يقدّم تفسيرًا معنويًا للقرآن الكريم، وهو بالفعل قد امتلك ناصية اللغة العربية إلى جانب امتلاكه لناصية العلوم الشرعية والعلوم العقلية، والمطّلع على الآيات القليلة التي فسّرها يجد مدى القدرة والفهم الذي تمتع به الإمام النورسي.

إن النورسي لا يقف فقط عند معطيات علم الكلام والمتكلمين؛ وإنما نجده قد استوفى مقولات فلاسفة الإسلام كابن سينا وغيره من أصحاب العقليات الفلسفية في تاريخ الحضارة الإسلامية، وقد أثبت قدرة فائقة في نقد أطروحاتهم وتبيين جوانب القصور فيها.

المنهج الروحي العرفاني في الرسائل:

لعله من الواضح أن منهج الرسائل في إثبات القضايا الإيمانية قد اعتمد في الأساس على البراهين العقلية خاصة عندما اعتمد على الدليل الكوني (الكوزمولوجي)؛ فهو دليل يراه الإنسان، ويسمعه، ويحسه، ويتذوقه. ومن ثم فلا سبيل إلى إنكاره إلا من قبل المعاندين والسوفسطائيين، ولقد اتخذت الرسائل هذا الدليل برهانًا على وجود خالق ومدبّر ومتصرّف في أمر هذا الكون قياسًا تمثيليًا على كل المصنوعات التي لابد لها من صانع، وبالرغم من معقولية هذا الدليل إلا أن بعض مشاهير الفلاسفة قد شكّكوا فيه من أمثال الفيلسوف الانجليزي ديفيد هيوم، وتبعه على تشكّكه الفيلسوف إيمانويل كانت. (بشير،2015-83)، وقد استفاض الإمام النورسي في غير ما موضع من رسائل النور في الرد على تلك الشبهات وبيان ما ينهض بإثبات قوة وموثوقية هذا الدليل.

وإلى جانب دليل العناية والغائية والدليل الأنطولوجي وبقية الأدلة الاستنباطية الأخرى التي ظهرت في المنطق القرآني التي أخذ بها الإمام النورسي في رسائله فلابد من الوقوف على الأدلة العرفانية الروحية التي وجدت طريقها إلى الرسائل معبّرة تعبيرًا صادقًا عن طبيعة التطور الروحي الذي مرّ به الإمام بديع الزمان سعيد النورسي.

إن الأثر الصوفي ظاهر بوضوح في شخصية النورسي حيث إنه تربّى في بيئة شرق تركيا المفعمة بالجوانب والمظاهر الصوفية الحاضرة (في عصر النورسي) والماضية؛ فالمنطقة عرفت العديد من الشخصيات التي تعتبر رموزًا للتصوف والمتصوفة بمختلف مدارسهم، ومناطق آسيا الوسطى وبلاد فارس وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وبلاد شبه القارة الهندية تفيض بالموروثات الصوفية وبالمؤثرات العرفانية. ومن نافلة القول أن يقال إن المنطقة عرفت تأثيرات الطريقتين النقشبندية والمولوية.

يمكن من خلال الاستقراء وتفحّص النصوص الواردة في مجموعة الرسائل تحديد المناهج المعرفية التي سار عليها بديع الزمان سعيد النورسي للوصول إلى وضع القواعد لمنظومة معرفية محددة؛ وهي الحواس، والعقل، والخبر، والكشف، والإلهام، والوحي، والرؤيا.

لاشكّ أن الإمام النورسي يتفق مع علماء الكلام حول إمكانيّة المعرفة، وحول استقاء الإنسان للمعرفة عن طريق الحواس، والعقل، والخبر. (غير أن المتتبع لمواقف بديع الزمان النورسي من علم الكلام يلمس أنه ليس مجرد متكلم على طريقة المتكلمين القدماء، بل هو ناقد لمباحث علم الكلام، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من علماء المسلمين، بيد أن الإمام النورسي لم يكتفي بالنقد؛ بل تجاوزه باتجاه البناء لمنظومة كلامية معاصرة؛ فاستحق أن يوصف بكونه مجدد عميق ودقيق في مسائله، ولهذا جاءت رؤينه أنه لن تنهض حاجة لعلم الكلام بعد تصنيف رسائل النور التي احتوت على جميع مباحث علم الكلام بصورة جديدة، وزادت عليها بأن تناولت عددًا من الأقضية والمباحث المتصلة بتخصصات علمية إسلامية أخرى).

ويمكن القول إن النورسي وافق أهل التصوف في القول بالكشف، والإلهام، والذوق، والرؤيا؛ وفي هذا المنحى الخاص بالرؤى يقول النورسي: (... وإن النبي صلى الله عليه وسلم يتراءى في وقت واحد في كشف الأولياء وفي الرؤى الصادقة لأمته، ويقابلهم جميعًا بشفاعته لهم يوم الحشر). (النورسي، 2008-477) ويقول النورسي أيضًا: (والأبدال من الأولياء يظهرون ويُشاهدون في أماكن كثيرة في آنٍ واحد). (النورسي، 2008-477)

ويمكن القول إن مصادر النورسي المعرفية، ومناهجه التي سار عليها لتأكيد الإيمان بالله تعالى وتوابعه من الأمور الغيبية تنقسم إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول هي المصادر الخاضعة للعقل والمنطق، وهي الطرائق الفلسفية والكلامية؛ وأما القسم الثاني منها فهو القسم غير الخاضع للعقل والمنطق، وهذه تتمثّل في الطرائق العرفانية الكشفية التي تُلحق بطرائق المتصوفة ومناهجهم. إنه بالإمكان تسمية المصادر المعرفية من القسم الأول (مصادر معرفية من الدرجة الأولى)، وهي التي تحمل صاحبها على قبول الإيمان ابتداءً لأنها تحمل الأدلة والبراهين المقنعة بالإيمان. وأما القسم الثاني فهي (مصادر معرفية من الدرجة الثانية) لأنها في الغالب تظهر لمن كان مؤمنًا سلفًا فتأتيه الرؤى والفيوضات الربانية والواردات الإلهية التي تثبت قلبه، وتزيده إيمانًا إلى إيمانه.) (صالح، 2013)

خاتمة:

من خلال تتبع الأمثلة المستقاة من مجموعة رسائل النور تستخلص الورقة المناهج التي سار عليها الإمام النورسي في إثبات قضايا الإيمان، وتبيّن أن النورسي في رسائله النورية قد نهج نهجًا جامعًا ومستفيدًا من مناهج المتكلمين، والفلاسفة، والمتصوفة. غير أنه كان متعاملًا مع تلك المناهج المتعددة والمتباينة بل المتعارضة أحيانًا بطريقة نقدية، كما أن المناهج القرآنية قد أثرّت بصورة واضحة على منهج الرسائل في إثبات وترسيخ قضايا الإيمان وحقائقه، وتؤكد الورقة على المكانة التجديدية المرموقة التي اتصف بها الإمام بديع الزمان سعيد النورسي في ميدان الفكر الإسلامي عامة، وعلى نحوٍ خاص في ميدان علم الكلام، وميدان التفسير المعنوي للقرآن الكريم.

المراجع

القرآن الكريم

1-ابن ماجة القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

2-أحمد بن حنبل الشيباني، مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2001.

3-زكريا بشير إمام، الإعجاز المنطقي في القرآن الكريم، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، السودان، 2015م.

4-محمد مصطفى محمد صالح، حول مصادر المعرفة عند بديع الزمان سعيد النورسي، ورقة علمية غير منشورة، المؤتمر العالمي الأول حول الإمام النورسي ورسائل النور، جامعة الخرطوم، كلية الآداب، قسم الفلسفة / وقف الخيرات، مايو 2013.

5-النورسي، الكلمات، مركز الترجمة والبحوث العلمية، دار السنابل الذهبية، القاهرة، 2012م.

6-النورسي، المثنوي العربي النوري، مركز الترجمة والبحوث العلمية، دار السنابل الذهبية، القاهرة، 2009م.

7-النورسي، عصا موسى، مركز الترجمة والبحوث العلمية، دار السنابل الذهبية، القاهرة، 2013م.